شـــواهد

- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾

قرآن كريم (سورة الحج، الآيتان 27 – 28)

- «**أيها الناس: كلُّكم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح. اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً**». محمد رسول الله ﷺ (570 – 632 م) (من خطبة الوداع بعرفة)

- ثمة سرٌّ بيننا وبين بيت الله... لا يعرف كنهه حتى جبريل الأمين

محمد إقبال (1877 – 1938) (Annemarie Schimmel, Gabriel's Wing, p. 199)

- إن من لا يدرك جوهرَ الحج لا يعود من مكة إلا بحقيبةٍ ملأى بهدايا الذكرى، وبعقلٍ فارغ من كلِّ شيء... ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أن هذه المؤتمرات]السنوية [يعقدها رؤساءُ دولٍ أو ممثّلوهم، أو دبلوماسيون أو قادةٌ سياسيون، أو أعضاء برلمان. لا! لا! بل الله وحده هو الذي يقضي للناس ما عليهم فعله لأنهم المستخلَفون على أرضه. وهذا هو سبب اجتماع الحجيج في منى حيث يتولى الله تعالى أمرهم وهم مجتمعون بدعوةٍ منه.

علي شريعتي (1933 – 1977) (Hajj, pp. 83, 111-112)

- قد تَجْبَهك هذه الكلمات وهي تصدر عني؛ إلا أن ما خبرتُه في رحلةِ حجّي هذه وعاينتُه حملني على أن أعيد ترتيب كثير من أساليب تفكيري الماضية، وأن أطرح جانباً بعض نتائجي السابقة... ففي غضون الأيام الأحد عشر التي أنفقتها هنا في العالم الإسلامي، طعمتُ طعامي من طبقٍ مشترك، وشربتُ شرابي من كوبٍ مشترك، وأويتُ مع إخوتي المسلمين إلى فراشٍ واحد – عابدين إلهاً واحداً لا شريك له.... كنّا بحقٍّ إخوةً في الله، إيمانهم بإلهٍ واحد أزال من عقولهم وسلوكهم ومواقفهم ما خالطها من غشاوات.

مالكوم إكس (1925 – 1965)

(in Autobiography, p. 340"Letter from Mecca")

توطئة

هذا الكتاب أثير عندي، مع أنني ألَّفتُ قبله كتباً أخرى. أما هو فقد ملكَ زمامَ قلبي فأحببتُه. والحقُّ أن هذا المشروع اتَّسعت أطرافه إلى ما هو أبعد بكثيرٍ من بواكير طموحاتي بشأنه، ذلك لأن القائمين على إدارة الحج – أو مَن يبذلون وسع طاقتهم في إدارته – أغدقوا عليَّ كمّاً من المعلومات والرؤى فوق ما كنتُ أنتظر، وما أسرع ما تضاعفت ارتباطاتي في كل دولةٍ زرتُها. وبعد أن أدَّيتُ فريضةَ الحج عن نفسي بدأتُ من فوري عملاً ميدانياً في باكستان وتركيا خلصتُ منه إلى نتائج طيبةٍ عزمتُ على إثرها على القيام برحلاتٍ أخرى إلى ماليزيا وإندونيسيا، ومن ثم إلى نيجيريا والسنغال. ولم يقع في خَلَدي أن أتناول عملاً بهذا الحجم، إلا أن خطوةً كانت تفضي بي إلى أخرى، فلم أرَ بدّاً من متابعة الخُطا.

لكن لماذا استغرقتني فكرة الحج فانصرفت إليها بكلِّيَّتي؟ وما الذي حمل كثيراً ممّن لا يعرفني على أن يتعنّى مساعدتي كي أنجح؟ إن أبسط جواب هو أن الحج بكل ما فيه "سحري" يثير العَجَب والإعجاب، وهو – في كثيرٍ من وجوهه – يمثِّل جوهر الإسلام في أرقى معانيه الإنسانية الخيِّرة من الشمولية والسلام والمساواة. تلك هي عين المُثُل التي تبعث في نفوس المسلمين الفخر بتعاليمهم وأعرافهم، بقدر ما تورثهم الأسى عند تجاهلهم أو التنكُّر لوجودهم.

وهذا ما يثير السبب الثاني لافتتاني بالحج. فمع إيماننا بأن هذه المُثل حقيقيةٌ وصحيحة، إلا أننا ندرك كذلك أنها ممتنعة؛ إذ يبدو الحجُّ أحياناً – في مقابل كل جلاله وسموِّ منزلته – أشبه بأي سلعةٍ أو صفقةٍ تجارية، ومجالاً للمراءاة والتفاخر! حقاً إن تناقضات الحج أمرٌ شائعٌ لا يخفى على

أحد في العالم الإسلامي. وطالما كانت تدهشني حيثما توجهتُ صراحةُ الناس في انتقاد مؤسسات الحج في بلدانهم وفي دولٍ أخرى من العالم على حدٍّ سواء، بل إنني سمعتُ هذا حتى من القائمين على رسم سياسة الحج وتطبيقها أنفسِهم. وكأني ببعض الأصدقاء كانوا يتحدثون بين حينٍ وآخر عن ممارسات خاطئة لبعض العائلات ربما وصلت إلى حدِّ الشطط. وما كان عليَّ إزاء ذلك إلا أن أتابع الاستماع وأتعلّم.

وتوخيّاً لتلبية احتياجات القارئ العادي والمتخصِّص، قمتُ باختصار أهم المساقات الواردة في متن الكتاب، ووضعتُ ملحقاً لمن يرغب في الاستفاضة، مع إحالاتٍ إليه في المواضع المقابلة من سياق المتن.

جاءت الفكرة الأولى لتأليف كتابٍ في الحج من السيد ليونارد بايندر والراحل المرحوم فضل الرحمن. ثم أفدتُ في أثناء وضع الكتاب من توجيهاتٍ ثمينةٍ أسداها إليَّ كلٌّ من: إيليا هاريك ومارفن واينباوم وجون إسبوسيتو. وكان مساعدي جيفرسون غراي ردْءاً لي في جمع المعلومات الأساسية وتوضيحها في سياقاتها. وسعدتُ إذ حظيتُ بمعونةٍ ماليةٍ لمشروعي مقدَّمةٍ من كلٍّ من وزارة التربية الأمريكية، وقسم العلوم الاجتماعية في جامعة شيكاغو، ومعهد الدراسات الإنسانية بشيكاغو.

وكم أنا مدين لعشرات القائمين على إدارة شؤون الحج ممَّن فتحوا لي أبوابهم وملفَّاتهم في كثير من البلدان، مبادرين إلى معونتي غير ضانّين بها، واثقين بأن إدراك حقيقة الحج ودوره في الإسلام حريٌّ بأن يعمِّم النفعَ على الناس جميعاً مهما اختلفت عقائدهم وانتماءاتهم الدينية.

ولا بد لي كذلك أن أزجي شكري خالصاً إلى أولئك الذين منحوني من وقتهم واهتمامهم ما يدفعني إلى شكرهم شخصياً؛ فمن باكستان: عمر قرشي وعائلته، وسميرة شاه، وإجاز غيلاني، وحافظ باشا. ومن تركيا: ديلك بارلاس، وبكر دميركول، وليفانت كوركت، وكارل هيرشيرزر، وغونيلي غون،

وميتين هيبر. ومن ماليزيا: محمد زايني. ومن إندونيسيا: قدري عزيزي. وكانت تجربتي في نيجيريا ممتعةً ومفيدةً بنوعٍ خاص بفضل كلٍّ من: لا ري دينزر، والأب جوزيف كيني، والأب إهياني إنويريم، وشيهو غالادانسي، وساني زهر الدين، وكبيرو ساني هانغا، ومحمد ساني عمر، وكبير الأساقفة بيتر أكينولا، والأسقف دي. إي. إينيانغ، والدكتور إيفوسا أوفياسو، ومايكل حنا، وأولو ماكيندي. أما في السنغال فقد اشتدَّ أزري بما أسداه إليَّ سليمان بشير دياني، والحاج رواني امباي، وخادم امباكي من عون.

وقد ساعدني كذلك نفرٌ من المختصّين القانونيين على تمحيص دلالات الحج في القانون الدولي، وإضافة بُعدٍ خاصٍّ يتجاوز حدودَ الإرشاد الذي تلقَّيتُه من الزملاء في العلوم الاجتماعية والدراسات الإنسانية. وأود في هذا الصدد أن أخصَّ بشكري كلاً من: مارك جانيس، وعبد الله أحمد النعيم، وآلان رافائيل، وشريف بسيوني. أما فيكي ميفيلد، وثيو كالديرارا فقد كانا الدليل المرشد في مراجعة مسوَّدة الكتاب مراتٍ عديدة، وقراءة كل كلمةٍ منه قراءةَ تدبُّرٍ ونقد. ومن ثم فإن أي هناتٍ في هذا العمل - إن وجدت - هي قصورٌ مني شخصياً ليس غير.

المقدمة

الحج أعظم اجتماعٍ إنسانيٍّ على الأرض؛ إذ ينضمُّ في كل عامٍ ما يزيد على المليونين من البشر من كلِّ فجٍّ من العالم في مكانٍ واحدٍ ووقتٍ معلومٍ، يقصدون زيارة "بيت الله" - الكعبة المشرَّفة في مكة المكرمة - ليشهدوا شعائر ما برح المسلمون عاكفين على إقامتها منذ أربعةَ عشرَ قرناً. واليوم يُنقَل معظمُ شعائر الحج حيّاً على شاشات التلفزة، بحيث بات بإمكان المسلمين في شتى أنحاء العالم مرافقةُ الحجيج وهم يُتمّون شعائرهم ويجدِّدون عهدهم مع الله تعالى، ومع النبيّين من عهد آدم إلى محمد ﷺ، ومع المؤمنين أجمعين.

والحج في نظر الحاجّ ذروةُ حياته الروحية؛ فيه يتطهَّر من ذنوبه كلِّها ويخرج منه نقياً كيوم ولدته أمه، واثقاً بدخول الجنة إذا عاجلته المنيَّةُ قبل أن يرجع إلى أهله. والحج في نظر المسلمين في كل مكان أعظمُ تعبيرٍ عن وحدة المؤمنين ومساواتهم واشتراك مصيرهم ومقصدهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والحج، إلى ذلك، موسمٌ للتأمل العميق، يسبر فيه الحجاج أعماق ذواتهم، ويستعرضون الظروف الاجتماعية والسياسية في أوطانهم وفي المجتمع الإسلامي، بل وعلى مستوى العالم أجمع. ولا شك أن هذا الانصهار الواضح للدين والسياسة في بوتقة واحدة لا يجعل من الحج رحلةً مقدسةً فحسب، بل مؤتمراً إسلامياً سنوياً عظيماً، حقيقاً بأن يدفع المجتمعَ الإسلاميَّ إلى تجديد بناء نفسه ولمِّ شعثه وإعادة النظر في موقعه على مسار التاريخ الإنساني.

سياسة الحج اليوم

للحجِّ على الدوام نتائجُ سياسيةٌ بعيدة الأثر. وهو اليوم أكثر صلةً بالسياسة من أي وقتٍ مضى، ولا سيما بعد أن تولَّت الحكوماتُ منذ نحو

نصف قرن رعايةَ إدارة شؤون الحج وتنظيمها. وقد بدأت وكالاتُ الحج الرسميةُ التابعة للدولة بالفعل بالاستئثار بالقسط الأوفر من السوق المزدهرة للسياحة الدينية بدلاً من القطاع الخاص. فالساسة يحاولون استمالة الناخبين عن طريق التنافس في طرح عروضٍ باهظة الكلفة تتمثل في تقديم إعاناتٍ وخِدْماتٍ سخيةٍ تتعلق بالحج. وكبار المصرفيِّين وأرباب المشروعات يتزاحمون على اجتذاب رؤوس أموال استثمارية من الأفراد الطامحين إلى أداء فريضة الحج ممَّن يدفعون نفقات حجِّهم مقدَّماً إلى مشروعات الادّخار تقسيطاً. وتوزِّع وسائلُ الإعلام فيضاً من النصائح والبيانات التي تتناول كلَّ جانبٍ من جوانب الحج بدءاً من مرحلة الاستعداد للسفر إلى ما بعد العودة بشهور.

ولم يعد موسمُ الحج مقصوراً على بضعة أسابيع تقع بين العطلتين الرئيسيتين عند المسلمين: عيد الفطر في نهاية شهر رمضان، وعيد الأضحى الذي يتزامن مع موسم الحج نفسه؛ بل إن الحجَّ اليوم دورةُ عامٍ كامل من التخطيط والتمويل والتعليم والإعداد والنقل والإسكان والإصلاح والاحتفال والحِداد والنقد والتصحيح، وهو في أكبر الدول الإسلامية يتطلَّب من الاندفاع والتعاون الجماعي الواسع النطاق ما تتطلّبه أعظم فعاليةٍ أخرى، حتى فعالية الحرب.

ومع كل ما توليه الحكوماتُ ورجالُ السياسة من كبير اهتمامٍ بتنظيم شؤون الحج، فنادراً ما تضع تلك الحكوماتُ تصوُّراتٍ للنتائج المترتبة على سياسات الحج في بلدانهم وخارجها. فالحجاج إلى مكة المكرمة هم أولاً وقبل كل شيء "ضيوف الرحمن" لا ضيوف المملكة العربية السعودية أو غيرها، وهم ينتظرون أن يجدوا مجالاً رحباً من الحرية في زيارة المشاعر المقدسة والعيش مع أحاسيسهم الروحية بصورةٍ فرديةٍ مستقلة. وبذلك فإن مبدأ النفاذ المفتوح، إضافةً إلى حرية التفسير الديني، يحافظ على استقلالية الحج مهما كان عدد الساسة الذين يحاولون التأثير فيه.

إن المناظرات والحوارات الحرَّة حول معاني شعائر الحج تشغل المسلمين في كل مكان. وتسعى كلُّ دولةٍ جاهدةً إلى ترويج آرائها المفضَّلة بهذا الشأن. إلا أن تلك الآراء ليست في حقيقة الأمر إلا جزءاً من حوارٍ عالميٍّ شامل يلامس كلَّ جوانب الإسلام والسياسة. وكلما ادَّعت الحكوماتُ لنفسها الفضلَ في تشجيع الحج، جلبت على نفسها التُّهم بتشويه صورة الدين واستغلاله لمصلحتها. وعندما يكون الأمر متعلقاً بإدارة الحج يدرك الحكامُ المسلمون أن لا شيء يعلو على النقد البنَّاء.

ومع تنامي الحج الأكبر حول العالم، واكتسابه الصبغة السياسية أكثر فأكثر، فإنه يقوِّض اعتقاداتٍ راسخةً عن الدين في المجتمع الحديث، وبخاصةٍ فيما يتَّصل بفصل المقدَّس عن الوثني، والدَّور الثانوي للشعائر في الحياة اليومية، إذ يتعذَّر تصوُّر أي مجموعةٍ مهما كانت قوّتها يمكنها التحكُّم في الحج وفقاً لمصالحها، أو تحويل مساره الفاعل لتثبيت الوضع الراهن بمظهرٍ من التشكيك به.

وقد اعتمد من خَلَفَ الملك فيصل على منظمة المؤتمر الإسلامي للتفاوض على نظامٍ دوليٍّ جديدٍ للحج، فرضَ منهجاً غير مسبوقٍ ولا معروف يقوم على مبدأ التحصيص لكل دولة، ويقيِّد حملات الدعاية الثورية التي يطلقها الحجّاج الإيرانيون، ويحدُّ من عدد الخسائر المتزايدة في الأرواح التي يسبِّبها فرط الزحام. وباكتساب إجماعٍ دولي في منظمة المؤتمر الإسلامي باشرَ المسؤولون السعوديون إصلاحاتٍ مثيرةً للجدل تتصل بالحج، لم يكونوا ليعتمدوها من عند أنفسهم. ومع ذلك فإن نجاحهم هذا بحدِّ ذاته أسهمَ في إضعاف الأثر السعودي في الحج وفي منظمة المؤتمر الإسلامي على السواء.

ثم إن الدولَ الإسلاميةَ الكبرى التي قدَّمت العون للمملكة العربية السعودية كانت أكثر تقدُّماً من الإمارات الصحراوية التي اعتادت السيطرةَ على الدبلوماسية الإسلامية. وقد أدرك السعوديون ضرورةَ اقتسام النفوذ مع

دولٍ هامةٍ غير عربية تتمتع بإدارة حديثة متطوِّرة لشؤون الحج، لاسيما باكستان وماليزيا وتركيا وإندونيسيا ونيجيريا. وكان لا بدَّ من اشتراك دول كهذه ذاتِ إداراتٍ مخضرمةٍ في شؤون الحج، لكي يتم إمضاء نظام الحصص الجديد، علماً بأن تلك الدول جَنَتْ من ذلك مكاسب كثيرةً عزَّزت نفوذها في العالم الإسلامي وفيما وراءه. تمتلك هذه الدول جميعاً، مقارنةً بالمملكة العربية السعودية، منظومات اقتصاديةً متنوِّعةً وتنافسيةً على مستوىً دولي، وثقافاتٍ تعدُّديةً شمولية، ونُظُماً سياسيةً مستجيبةً للمطالب الشعبية من الديمقراطية والمساواة.

هذا وقد وقفت دولٌ بارزةٌ – آسيويةٌ وإفريقية في منظمة المؤتمر الإسلامي – إلى جانب المملكة العربية السعودية في ردٍّ مطلبٍ إيرانيٍّ بأن تتخلى الرياض عن سيادتها على الحج والأماكن المقدَّسة وتتنازل عنها لإدارةٍ دوليةٍ تمثلها البلدانُ الإسلامية كلُّها. إلا أن تلك الدول طلبت ثمناً باهظاً في مقابل بذل دعمها. وكان على الطرف السعودي القبول بحلٍ وسطٍ يحفظ له سيادته على المدن المقدسة، على أن يقترن ذلك بتدويل الحج. وفي حين وافقت الدولُ غير العربية على نظام الحصص مختصرةً مشاركتها في فعاليات الحج، أصرَّت على أن يكون لها صوتٌ مسموع في إطار نظام الحج الجديد وأدواتهِ من منظمة المؤتمر الإسلامي، التي تتولى الإشراف عليه.

ومع أن القادةَ السياسيين يستفيدون من الصعوبات التي تعترض المملكةَ العربية السعودية، فإن مساعيهم لإحداث مؤسساتٍ وطنيةٍ حصريّةٍ للحج تؤلِّب عليهم شعوبَهم. من هنا أقامت حكوماتُ دولٍ عديدة وكالاتٍ مركزيةً للحج من شأنها أن توفِّر كلَّ ما يلزم من خدماتٍ تموِّلها الدولةُ في كل مرحلةٍ من مراحل الحج.

وفيما يقوم المسؤولون التقنيُّون عن الحج في أنحاء العالم بمحاكاة بعضهم لبعضهم الآخر فيما يبتدع من مظاهر التجديد، فإن إدارة الحج الحديثةَ آخذةٌ في

الاتّساع بسرعةٍ ملحوظة؛ فهي تهيِّئ رحلات]حجٍّ وعمرة [كاملة ومدعومة مالياً تلائم كلَّ الناس على مختلف مشاربهم وميزانيَّاتهم وأذواقهم. بل إن الرحلات الراقية اليوم تتمُّ بالتسجيل عليها تسجيلاً مباشراً (على الخط)، بوجود كل ما يمكن من التسهيلات ومظاهر الرفاهية من حجزٍ حاسوبيٍّ في الطائرات والفنادق، وأدوات تدريب مصوَّرة، وأشرطة فيديوية، ومشافٍ ميدانية متنقلة، وتأمين على الحياة، ونظام تعرُّف الحاجيات والأمتعة بالألوان.

على أن إدارةَ الحج في جلِّ الحالات يخامرها شيءٌ من المحسوبية والفساد؛ فكلُّ برامج الحج الكبرى معدَّةٌ لفائدة مجموعات الاقتراع ومؤسساتِه في الداخل، ولتحقيقِ الاعتبار والمنزلة في الخارج. وكثيراً ما تتَّخذ إدارةُ الحج لبوساً سياسياً إلى درجةٍ تَفْسُد معها قيمُ الحج الجوهريةُ المنادية بوحدة الصفِّ والمساواة، ليحلَّ محلَّها انقسامُ المسلمين على كلِّ صعيد – عرقيٍّ ولغويٍّ وطبقيٍّ وحزبيٍّ وإقليميٍّ وطائفيٍّ وجنسيٍّ وعُمْريٍّ.

يتراوح الحجُّ في باكستان صعوداً وهبوطاً تبعاً لأحوال عائلة بوتو وحزب الشعب في صراعهما مع النخبة البنجابية المسيطرة على الجيش والاتحاد الإسلامي. وفي ماليزيا حوَّل الحزب الحاكمُ الحجَّ إلى مصرفٍ للدولة يموِّل جماعةَ المنتفعين السياسيين في المدن الكبرى ويَعزِل المناوئين الإسلاميين في الأرياف. والحجُّ في تركيا مستجمَعٌ دوَّارٌ للمحسوبية في خدمة عددٍ من الأحزاب اليمينية التي تتنافس على استمالة الناخبين المسلمين أنفسهم عن طريق التباري في صبِّ المعونات المالية وعقود الحج بسخاء في الدوائر الانتخابية الرئيسية. أما في إندونيسيا فعندما بدأ سوهارتو يفقد تأييد الجيش له حاولَ رَفْدَ شعبيَّته بجعل الحج الإندونيسي أكبرَ حجٍّ في العالم، وجلْب جميع أفراد أسرته إلى مكة المكرمة في محاولةٍ لصرف الأنظار عن فضائحهم التجارية. كذلك أنفق رجالُ السياسة النيجيريون أموالاً طائلةً على الحج بصورةٍ تركت انطباعاً لدى المسيحيين هناك بأن التوجُّه يميل إلى إقامة

دولة إسلامية. وعندما استولى ضباط الجيش المسلمون على السلطة دَفَعهم شبحُ الحرب الدينية إلى رعاية مشروع حجٍّ مسيحيٍّ إلى بيت المقدس أيضاً.

إن سياسات الحج القائمةَ على التمييز سياساتٌ متناقضةٌ دينياً وعكسيةُ الأثر سياسياً. وما التعامل مع الرموز المقدسة بغية جلب منفعةٍ للأنصار والموالين إلا نفاقٌ صريح لا يمكن احتماله حتى في أكثر الأوساط تشكيكاً. فالأرباحُ المكتسَبة من الدعم ما تلبث أن تَرْجَحَها خسائرُ في المشروعية والمصداقية.

إضافةً إلى ذلك فإن رعاية الحج المتَّسمةَ بالعدوانية تولِّد من الغضب والضغينة على الأقل قدرَ ما تولِّده من العرفان. فالكثير من المسلمين وغير المسلمين لا يستحسنون تدخُّل الدولة في الدين، وهم يرون أنَّ إنفاق الأموال العامة على الحج أمرٌ مستنكرٌ كإنفاقها على المساجد والمدارس الإسلامية.

ومن غير المحتمل أن يغيِّر المسلمون الملتزمون سياسياً انتماءاتهم لمجرَّد أن بضعة آلاف إضافية من الناس يتمكَّنون من بلوغ مكة المكرمة بكلفةٍ أقلَّ ببضع مئاتٍ من الدولارات. ويعتقد الكثيرون، ولا سيما في الدول التي يغلب عليها المسلمون، أن على جميع الحكومات واجبَ دعم الحج، ولا يرون سبباً لمكافأة الساسة لمجرَّد قيامهم بواجبهم. إذن، وفي ضوء هذه التوجهات، لا غرو أن تقوم وكالات الحج المُسَيَّسة بدعم الحكومات على المدى القريب، لتسعى إلى تقويضها في خاتمة المطاف.